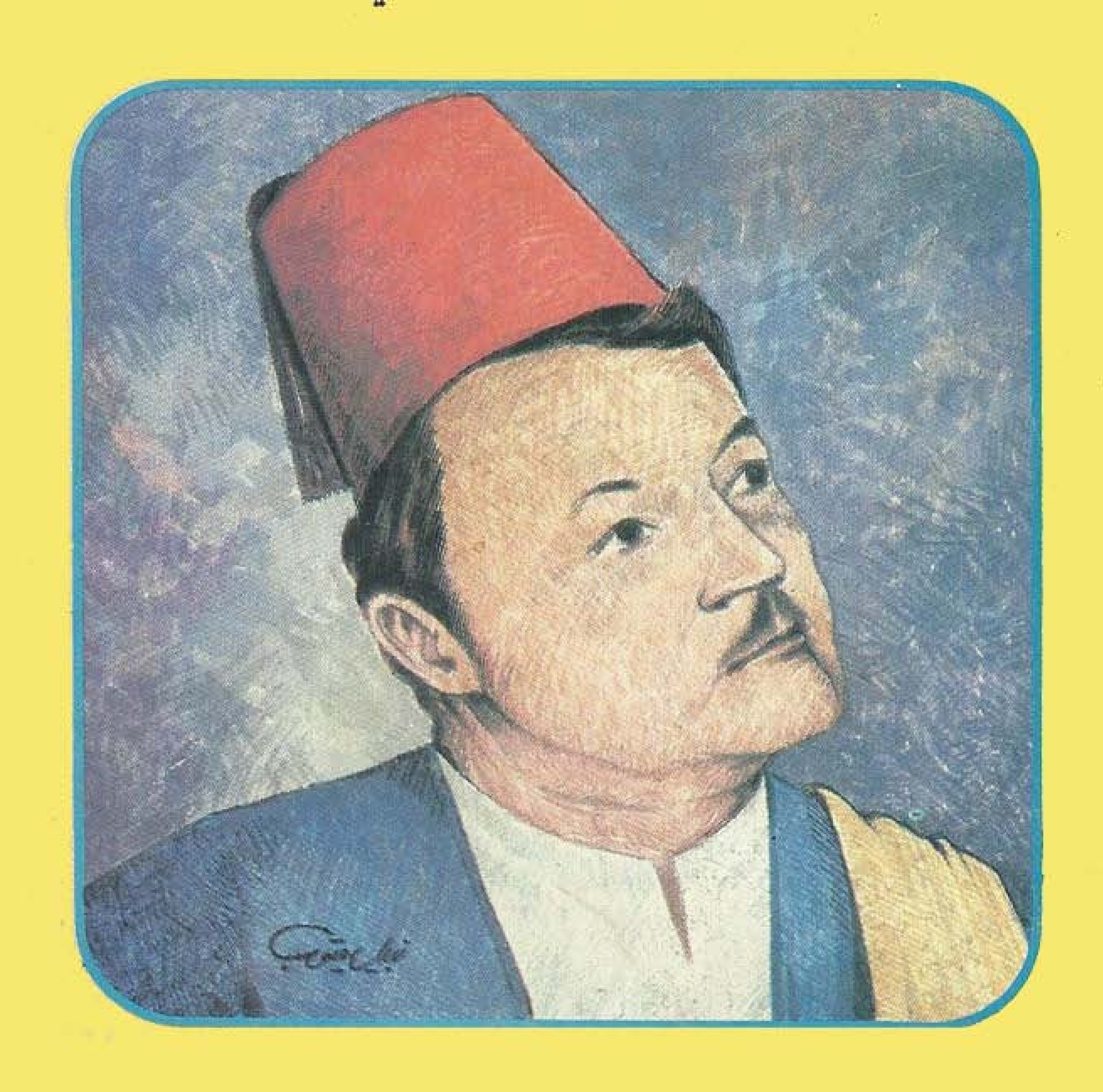
المشاهير

٦

بيرم التونسي

عبد الرؤوف الخنيسي



اسم الكتاب : بيرم التونسي .. شاعر الآلام والآمال
تأليف : عبد الرؤوف الخنيسي
الطبعة العربية : الأولى
سنة النشر : ١٩٨٩
الناشر : وزارة الثقافة والأعلام ـ دار ثقافة الأطفال
العراق ـ بغداد ـ ص.ب ٨٠٤١

٦

سلسلة المشاهير

تصدر عن قسم النشر في دار ثقافة الأطفال
المدير العام : فاروق سلوم
سكرتير تحرير السلسلة : فاروق يوسف

بيرم التونسي
شاعر الآلام والآمال

تأليف
عبد الرؤوف الخنيسي

لوحة الغلاف للفنان : نبيل يعقوب

المسح الضوئي و الأعداد الفني
أحمد هاشم الزبيدي

تنويه : تم اعداد هذا الكتاب عن نسخة اصلية وصلتني بواسطة الصديق (رياض الشمري) جزاه الله كل خير ، كان ارسلها لي كهدية لاجل توثيقها الكترونياً ، وقمت بتعديلها لتصبح بنفس حجم اقرانها من كتب سلسلة (المشاهير).

احمد هاشم الزبيدي
٢٠٢٠م



ومضة

يعدّونه موليير مصر . .
وأعدّه شكسبير العرب .
عاش بين دمعة وابتسامة متذوقاً مرارة المنفى وعَناء السفر والغربة ، مُوقّعاً في حزن عميق دفين :

الأوّلة مَصرْ قالوا تونسي ونفوني جَزاة الخير وإحساني
والثانية تونس وفيها الاهل جحدوني وحتى الغير ماواساني
والثالثَه باريسْ وفي باريس نكروني وأنا موليير في زماني

الأوّله أشْتكِيها للّي أجْرَى النيل
والثانية دمعي عليها غَرّق الباسْتيل
والثالثة لَطِّشْتْ فيها مْمتَثِلْ وذَليلْ

فهذا عمك محمود بيرم التونسي .
عمك الذي سحرنا بشعره الفصيح وزجله العامي وبأغانيه الوطنية والعاطفية والاجتماعية مُستلهماً عبقرية أمته العربية التليدة وقوى الإبداع والإمتاع في حياة . الناس اللّي تحت ـ . .

لقد كان عمك محمود بيرم التونسي سفينة أشواق وهوى ، جابهت إعصار الظلمات وعواصف العَسْف والطغيان إلى أن وصلت إلى شاطىء الأمان .

فاقرأ تاريخ عمك ، وكن بحياته بَصيراً وبتراثه أمينا .

عبد الرؤوف الخنيسيّ



قطرة الفجر

يولد الشاعر كما تولد قطرة المطر إثْرَ الرَّعد والغَيْم.
ففي يومِ السبت الرابع من مايو سنة ألف وثمانمائة وثلاث وتسعين ميلادية (١٨٩٣) ولد عمّك محمود بن مصطفى بيرم التونسي بحي السيّالة الشعبي بمدينة الاسكندرية المصرية.

كان والده - برّد الله بالرحمة مثواه - تاجراً صغيراً للحرير.

وفي سِنّ الرابعة التحق الطفل محمود بكُتّاب الحيّ ليتعلّم نصيباً من القرآن الكريم، ومباديء القراءة والكتابة. لكنَّ قسوة المؤدب أثّرت في الطفل الغَض فترك الكُتّاب مُلتحِقاً بدُكّان والده.

وعندما بلغ الرابعة عشرة من عمره، وفي مسجد - المرسي أبي العباس - حفِظ القرآن وعرف مباديء اللغة والنحو والبيان. لكنَّ موت والده دعاه للانقطاع عن المعهد، فعَمِلَ الصبيّ بَقّالاً في الحي - مُكتشفاً دنيا الناس وحياة - الناس اللّي تحت -. ثم استهوتْهُ القَصَص الشعبية والمواويل والسِير والمدائح التي كان يسمعها أيام مولد المرسي أبي العباس -
وأخذ حبّ الأدب والشعر والفن يسري في عروق الطفل محمود.

كان متهيئاً لأن ينهل من النهر الكبير. نهر الشعراء الكبار والفنانين العمالقة الذين أنجبَتْهم أمّتك العربيةُ الكبيرة الأثيرة.

وعن هذه المرحلة المُبكّرة من حياة عمك محمود يُحدّثنا عمك يسرى العزب قائلاً:

«في هذه الفترة استهْوَتْ بيرم المواويل والمدائح والسِّير والحكايات الشعبية التي كان يذهب لسماعها أيام مولد أبي العباس، كما كانت سبباً في حبّه الشّعر وحفظه وترديده بين قُرنائه، خصوصاً ديوان ابن الرومي وأزجال محمد توفيق صاحب مجلة «حمارة منيتي» وقد دفعه هذا الحب للشعر والزجل إلى حفظ بحور الشعر وتقليدها كما أدّى حبّه للأدب الى الطرد من محل البقالة الذي كان يعمل به.»

وكانت أُمّه قد تزوجت من صانع للبرادع وهَوادِجِ الجمال فشغّله معه، كما علّمه التجارة وإصلاح الساعات، والطلاء بالقير وغيرها من الحِرَف الصغيرة.

يقول عمك محمود عن هذا الرجل:

لقّنني درس الحياة الأول. ولذلك فأنا إذا آنسدّ أمامي باب نفذت من الكُوّة، وإذا استعصىٰ علي الاثنان، انزلقت من تحت الباب.

وفي مراحل عمر عمك محمود محطّات حياتية عجيبة وغريبة رحيبة، وجديرة بالتأمل والعبرة.

فعندما ماتت أمّه وهو في السابعة عَشْرة أدار محلاً للبقالة، وفي هذا المحل قرأ من جديد عيون الأدب وطرائف الكتب التي كان يقطع أوراقها ليلُفَّ فيها مايبيع مِن سلع البقالة.

وكان ضمن ماقرأ في محل البقالة بين أكداس البقدونس والبطاطس والفجل والكرنب، كتاب التصوّف الذي عنه يقول:

«كان هذا الكتاب نقطة تحوُّل في حياتي، إذْ رغّب إليّ حبّ التصوّف ودراسة الاسلام، وأحوال المسلمين على نمط يتناسب مع العصر ويتّفق مع روح الجماعة التي نعيش فيها، واتسعت مداركي»

وكما تتفتّح الوردة وهي تستقبل أنداء الفجر الأولى، وشمس الربيع الضاحك، وبهاءه الفواح، تفتّحت عيون عمك محمود على شخصيات مُهمّة في دنيا الفُكاهة الأدبية والنكتة الاجتماعية والأزجال الشعبية الغنائية.

وهنا استوقفك ياولدي لأحدّثك عن الفُكاهة المصرية كما تحدّث عنها أحمد أمين في قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية:

-١-

فقد اشتهر المصريون بالفُكاهة الحُلْوة والنوادر المضحكة، وخصوصاً أهل القاهرة وأهل رشيد. ولهم طابع خاص في نكتهم، وهذا الطابع يعتمد على الألفاظ واللعب بها والتورية أكثر من الذكاء.

مثال ذلك أنَّ الشيخ علي الليثي كان إمام الخديوي، وكان شاعره ومُضحكه، وكانت له حجرة في القصر خاصة به، فداعبه رجل يُسمَّى أحمد خيري باشا مهردار، أي حامل الخاتم لاسماعيل باشا، بأنْ كتب على باب حجرة الشيخ علي الليثي: «إنما نُطعمكم لوجه الله» فأدرك مغزاهُ الشيخ علي الليثي فقال فيه هذا الزجل:



كان لي طاحونة جوّ الدار
تدور وتطحن ليل نهار
دوّرت فيها التور عصى
تدور فيها المهردار

وقد كان محمد بكر عثمان جلال كبيراً ملأ الناس بالفُكاهات اللطيفة في عصره، مثل قوله لرياض باشا:

الخير عمّ الناس وفاض
ماحدّ إلاّ واستكْفَى
إلا أنا ياسيّدي رياض
وقعت من قعر القفة

وكقول بعض الظرفاء:

كل شيء في مصر يوجد
الا قهوة سي خليل
الكيوف فيها نظيفة
والحشيش مالهوش مثيل

وكانت قهوة خليل هذه بشَبْرا يقصدها ذوو الكيوف ومنهم بعض الذوات.

وقد اشتهر جماعة من القاهريين بالنكت حتى بلغت كل الانحاء. ومن أولهم آبن دانْيال وهو صاحب كتاب «خيال الظل» ويليه آبن سودون، وله كتاب مطبوع آسمه «نزهة النفوس ومضحك العبوس». ثم الشيخ الشربيني مؤلف كتاب «هزّ القحوف، في شرح أبي شادوف»، ثم الشيخ حسن الآلاتي مؤلّف كتاب «مضحك العبوس»

وفُكاهات المصريين أنواع، منها التندّر على الفلاحين، والسخرية بالنحو، وقد اشتهر بها الشيخ الشربيني، ومنها المفارقات وقد اشتهر بها الشيخ حسن الآلاتي، وهكذا..

وقد كان في القاهرة شابان أرادا أنْ يتضاحكا على أدباء عصرهما بتلقيب كل منهم لقباً خاصاً مُضحِكاً. فسمّيا الساعاتي الاديب «ديك الجن» لأنه كان دقيق الرقبة. ولقّبا أديباً ذا لحية مُدببة بآبن مَكانس، وسَمّيا الشيخ ابراهيم الدسوقي وكان ضخماً عالي الصوت في الضحك «مهيارا الديلمي» ولقّبا أديباً كان ينطق بالصاد نطقاً عجيباً فيه صفير، فقالا: إنّه خير من نطق بالصاد. وأخيراً سمَّىٰ أحدهما الآخر «الشاب الظريف»

ومن غريب مانـلاحظـه في هذا الباب أنَّ أشدّ الناس بؤساً وأسوأهم عيشة وأقلّهم مالاً وأخـلاهم يداً أكثـر النـاس نكتـة، ففي المقـاهي البلديـة حيث يجلس الصُنّـاع والعمـال، ومن لاصنعـة لهم ولاعمل، وفي المجتمعات الشعبية حيث يجتمع البؤساء والفقراء نجد النكتة بينهم تحلّ محلاً ممتازاً. ونجد آبن النكتة محبوباً مُقدّراً، يُفتَقَدُ إذا غاب، ويُبجَّل إذا حضر، كأنَّ الطبيعة التي تداوي نفسها بنفسها رأت البؤس داء فعالجته بالنكتة دواء.

وفي المصريين مَن يحترفون قول النكت وآختراعها وروايتها. ومن هؤلاء مَن يُدْعَون للحفلات يملأونها سروراً وضَحِكاً، ومنهم مَن يقتصر في ذلك على صحبه وأصدقائه يُؤنسهم في مجـالسهم الخـاصـة، ويـروي لهم كلَّ ماآخترع من النكت. ومنهم مَنْ يحترفه من ناحية التحرير في الصحف والمجلات الفُكاهية.

وقد وصف قاسم أمينُ رجلاً من هذا الطراز فقال: «أتعرف حسين بكر؟ لا. رجل خفيف ولطيف. لاتغيب البشاشة عن وجهه ولم يرَه أحد قطّ غير مبتسم. إذا قال لك نهـارك سعيـد ضحـك وإذا اخبرتـه أنَّ الهـواء طيّب ضحك وإذا سمِع أنَّ زيداً مات ضحـك. زينـة المجالس وأنيس النوادي يرى نفسه مُكلّفاً بوظيفة السرور فيها ومنوطاً بنشـر التفـريـح حولـه. يستخـدم كل شيء لتسليـة نفسـه وأصحـابه، فيجد في أهمّ الحـوادث موضـوعاً للتنكيت وفي أحسن الرجال محلاً للسخرية. لو ضحّيت حياتك في أشرف الاعمـال فلا بدّ أنْ يُفتّش فيهـا عن الجهـة التي يتخذها واسطة للاستهزاء وجعلها أضحوكةً للناس...

(٢)

وعنـدهـا انـدفـع عمـك محمـود.. فبـدأ يُغنّي الشعب وينظم الزجل الوهّاج.. مستلهماً روح الشاعر الغاضب في وجه الأمراض السياسية والاجتماعية والنفسية التي كانت تسود مصر وفي نفسه كما يقول:

«حنق شديـد على المجتمـع الذي يحيا في جوخانق من الاِحتلال الانجليزي الذي يعمل رجاله على أنْ يظلّ الجهل والفقر سائدين بيننا إلى الأبد»

وبما أنَّ مهنة الأدب ياولدي كانت مدعاة للافلاس وطريقاً للضياع في ذلك الزمن المنكود، فقد أغلق عمك محمود دكان البقالة، وباع حقه في البيت الذي تركته أُمه، وأخـذ يواجـه مظـالم الحياة والسلطة، من ذلك مظالم المجلس البلدي الذي واجهه بقصيدته الشهيرة عن المجلس البلدي، ونشرتها جريدة الأهالي بالاسكندرية في ٢٥ مارس ١٩١٧.

وقـد ذاعت قصيـدة المجلس البلدي بين الناس وأهل الاسكندرية ذيوع النار في الهشيم، بحكم أنّها تصوُّر الواقع الاستغلالي الفاجع وتعكس طغيان السُلطة البلدية.

ولـك أنْ تتأمـل في هذه القصيـدة، فتهتدي الى شاعرية عمكَ محمود وهو يُصوّر حالات عاشها الناس في ظل الأمس الفاجع الدامع:

قد أوقعَ القلبَ في الأشجان والكَمَدِ
هوى حبيب يُسمّى المجلس البَلَدي
ماشرّد النومَ عن جفن القريح سوى
طيفِ الخيال، خيالِ المجلس البلدي
إذا الرغيفُ أتى فالنصفُ آكُلُه
والنصفُ أجعلُهُ للمجلس البلدي
ولم أذُقْ طَعْمَ قِدْرٍ كنتُ أطبخها
إلا إذا ذاقَ قبلي المجلس البلدي
وماكسوتُ عِيالي في الشتاء ولا
في الصيف إلاّ كسَوْتُ المجلس البلدي
كأنَّ أمّي أبلَّ اللّه تربتها
أوْصَتْ وقالت: أخوكَ المجلس البلدي
أخْشَى الزواجَ إذا يوم الزّفاف أتى
يبغي العروسَ صديقي المجلس البلدي
وربّما وهَبَ الرحمن لي ولداً
في بطنها يدَّعيه المجلس البلدي
إذا أقمتُ صَلاتي قلت مُفتَتِحاً
اللّه أكبر بآسم المجلس البلدي
أستغفر الله حتى في الصلاة غَدَتْ
عِبادتي نصفُها للمجلس البلدي
أمشي وأكتُمُ أنفاسي مَخافةَ أنْ
يعُدَّها عامل للمجلس البلدي
وإن جلست فجيبي لست أتركه
خوفَ اللُّصوص وخوفَ المجلس البلدي

أو هُمْ من الجند أجلاف يفرّقهم
ليجحفوا الناس بٱسم المجلس البلدي
من كل جلف قَفاه نِصف جثته
لِم غابَ عن مثل هذا المجلس البلدي
ياباَئِعَ الفجل بالملّيم واحدة
كم للْعيال وكم للمجلس البلدي

الأرضُ والناسُ والأنعام أجمعُها
الكُل ليست لغير المجلس البلدي
حتى مقابرَ موتانا إذا نُبِشَتْ
فليس إلاّ بفأس المجلس البلدي
أكادُ حين أرى نعشاً أقول حَوَى
ضحيّةً من ضحايا المجلس البلدي
أقسمتُ لاأدخُلُ الجنّات عن ثِقَةٍ
في الحشر إنْ قِيلَ فيها المجلس البلدي



على ظهر العذاب

وشاءت الأقدار أنْ يواجه عمك محمود أخطر ألوان العذاب والتشرد والاغتراب مواجهاً سياط الانجليز وقرارات السلطة الحاكمة الغاشمة في مصر الأبية.

ففي الخامس والعشرين من أغسْطس سنة ألف وتسعمائة وعشرين تمَّ ترحيله الى موطن أجداده تونس الخضراء.

يومئـذ كانت تونس الخضـراء في ظِلّ الحمـايـة الفـرنسية، يتصرّف في حظوظها المستعمـر الـدخيـل، ويـدوس كرامتها البَغْي الفرنسي فكان لابدّ للطائر الغَرِد من أن يطير بجناحيه الى شواطىء أخرى.

نعم ينتقـل الطـائـر المهـاجـر على ظهـر باخرة الى مرسيليا حيث يعمل عتّالاً في الميناء يحمل الزجاجات والصناديق بأحد مصانع الخمور، ثم ينتقل الى مدينة ليون الفرنسية في ديسمبر ١٩٢٠.

وعن هذه المرحلة الدامية الدامعة يكتب عمك قائلاً:

«سعيت بنفسي الى مدينـة صناعـة الصّلبْ في فرنسـا.. تلك المـدينـة التي لأهلها قلوب مثـل الحـديـد الصُلب لاتعـرف الـرحمـة أو الشفقـة. وهي أيضاً مشهورة عند الفرنسيين انفسهم بأنها مدينة معتمة، لاترى الشمس مُعظم أيام السنة..

وصلت إليها في عزّ الشتاء، ولأن جيوبي كانت شِبه خاوية، فقد اخذت المسألة من أقصـر طرقهـا وذهبت الى أفقـر أحيـائها، وآستأجرت فوق سطوح أحد المنازل شيئاً (كذا) يُسمّونه غُرفة، كانت من الخشب الذي حوّلته مياه الأمطار الى مكان له رائحة من نوع خاص.. إنهـا رائحـة قريبـة من العَفَن.. وداخـل هذه الثـلاجـة كنت أنـام الليالي القاسية الباردة.. وفي النهار كنت أسعى مع الفجر لأجِدّ في البحث عن عمل قبل أنْ يتبخر آخر مليم في جيبي».

في هذه المـدينـة الفـرنسيـة القـاسيـة، ذات القلب الحديدى الأصم لم يستطع الطائر المهاجر أنْ ينسى الوطن والناس. «الناس اللّي تحت».. «لا الناس اللّي فوق»..

فكـان في منفـاه يبعث بأجمـل الأشعار والأزجال عبر المجلات العربية المعروفة آنذاك من أمثال ـ العيون والامام ـ وابو للو والنيل ـ. . . .

وفي تونس وسوريا ولبنان عاش بيرم سنوات العذاب والاضطراب والارهاب . .

كمـا عرف حقـائق الاستعمـار الفـرنسي والانجليـزي ، وقـاوم بكـل فنون الكتابة والإبداع الشعري والمسرحي ، مظاهر الاستغلال واغتيال كرامة الشعوب المقهورة.

لكنَّ حبَّ مصـر العـربيـة يكفكف من اغتراب عمك محمود فيجدد من اضطرابه وشقاه ، فيدخل بيرم القاهرة عام ١٩٣٨ بعد وفاة الملك فؤاد بعامين .

وفي سنة ١٩٥٠ تُفرد جريدة ـ أخبار اليوم ـ مساحة أُسبوعية لأزجال عمك محمود مقابل عشرة جنيهات كلّ اسبوع ، والى جانب الأخبار ينشر بيرم معظم مقاماته بمجلة ـ «آبن البلد» .

وفي عام ١٩٥٢ يتفرغ لجريدة المصري.

وفي عام ١٩٥٤ يحصـل على الجنسيـة المصـرية ويعمل بالجمهورية وبها ينشر قِصته الزجلية الطويلة عن «كفاح الشعب» في ست وعشرين حلقة متتالية ، كما يُقدّم فوازيـر رمضـان عن بعض الشخصيـات السيـاسية المنحرفة في الوطن العربي وينشر أيضـاً أزجـالـه عن العـدوان الثـلاثي على مصـر التي ساعدت إلى حدّ كبير في تعبئة الجماهير ضد العدوان .

وفي عام ١٩٦٠ يحصل على وسام الفنون والآداب .

يقول عن هذه الفترة يسرى العزب :

«تُقدّم الإذاعة في غضون السنوات الثلاث الأخيرة العديد من مؤلفاته ، كملحمة الظاهر بيرس التي مات دون إكمالها ، وفوازير رمضان والكثير من الأغنيات .



آلام وآمال

يمتاز عمك محمود بيرم التونسي بأنه شاعر الآلام والآمال، ففي شعره أخضع الفصحى للعامية، ورفع العامية إلى الفصحى، مُستلهماً روح الشعب وأريحية الناس البسطاء الذين تكحلت أجفانهم وتقرَّحت عيونهم بحب وطنك العربي الكبير.

ويُعلّل عبد العليم القباني هذه الظاهرة في شعره الفصيح بأنَّ بيرم منذ البدء قد «أراد أنْ يكون شعره من حيث قربه للمفهوم الشعبي، ومن حيث قدرته على التعبير عما يدور في خلد الجماهير العريضة، ميسوراً إلى الدرجة التي يمكن معها أنْ يكون هذا الشعر زجلاً في معانيه وأغراضه وأخيلته لولا كلماته الخاضعة لقواعد الاعراب.

كذلك يرى محمود تيمور أنَّ «أشعار بيرم جاءت سهلة يقبلها كلّ عقل ومن أية ثقافة ومن كان بلا نصيب من الثقافة من جمهرة الناس، ويجدون فيها صدى لما يضطرب في نفوسهم جميعاً من مشاعر وحوافز، ومن آلام وآمال».

ويرى يسرى العزب «أنَّ قُدرة بيرم على التعبير عن قضايا الجماهير العريضة ومشاكلها هي التي ميّزت إنتاجه الأدبي كله، ومازالت هذه الجماهير في غالبيتها تحفظ وتردد قصيدته الفصيحة عن المجلس البلدي، وماالتفاف الجماهير حول هذه القصيدة وغيرها من شعره، إلاّ لإحساسهم بما يحمله من تعبير عن معاناتهم من تحكم الإدارة وعسف الأجانب في معاملة المصريين.

إنَّ هذا الدافع الاجتماعي الذي دفع بيرم لقول الشعر، والذي دفع الجماهير الشعبية للالتفاف حول مثل هذا الشعر، هونفسه الذي دفع بيرم الى الانحياز النهائي الى جانب الشعر العامي، حيث إنّه بعد استقراره في القاهرة سنة ١٩١٩ لم يكتب قصائده الفصحى إلاّ على سبيل الدُعابة، والممازحة مع شعراء وكتاب عصره أوعلى سبيل مُزاح اسلوب المقامة، على الطريقة التقليدية، بالشعر الفصيح الساخر».

وكما علمت ـ فلبيرم علاقة اجتماعية ـ متوترة ـ بمجلس الاسكندرية البلدي.

وكشاهد على شعره الفصيح الطيّع المطبوع الممتع، وعن تلك العلاقة ـ الملاكمة ـ الساخرة، يقول عمك:

وحول منازل الغرباء منّا

غرست الورد ثُمَّ الياسمينا
وأخضلت الغصون لهم سماء
ومهّدتُ الرخام الجزع فينا
وما قرموا للحم الطير حتى
منحتهم الإوز العائمينا
تفجر تحت أرجلهم عيوناً
(وتفقأ وسط اعيننا عيونا)
وترضى عنهم وتصدّ عنا

وقد سخطوا ونحن الشاكرونا
فمر بها علينا كلّ عـام
بحيّ الأشقياء البائسينا
ترى الوحلات جائمة وفيها
بنات قد تعلّمن العجينا
اذا كنت الطبيب ونحن مرضى
فأوص الناس خيرا بالبنينا

ولـك أنْ تعلم أنَّ عمـك بيـرم، يملك قدرة عجيبـة على التعبيـر بالعـامية في حواراته الـروائيـة والمسـرحيـة والقصصيـة بأسلوب يزيـدك وجهـه حسناً إذا مازدتَهُ نظرا، وهو أُسلوب بيرمي يعتمد الكلمة الموحية واللفظة الممتعة المُتدفقة المُندفعة.

ففي رواية «السيد ومراته في باريس» جاء على غلاف طبعتها الثانية:

«هـذا الكتـاب مُقـرَّر بجـامعـة اللغـات الشرقية في برلين لدراسة اللهجة العامية المصرية.. وأنَّ هذا الكتاب قد قُررّ للدراسة أيضاً في جامعتي الصربون وموسكو»

وهـذه فقـرة من الكتـاب، السيـد ومراته في باريس، تشهد على قدرة عمك على التعبير الحواري الشعبي البليغ، ثم هي صورة لحالة اجتماعية عاشها آباؤك في ظل الاقطاع، وفي عهد القيم العمالية المسفوحة..

- مالك ياسيّد سلامتك؟
- دراعي
- ماله دراعك بعد الشر؟
- كان حَيِنْقطع، الماكينة نزلت عليه، وانا مش واخد بالي.
- يادي البخت اللّي زي بعضه، . . وعملت ايه؟
- ولا حاجة. . الحكيم ربطه وقال. . ارتاح لي جمعتين.
- ياخبر تقعد جمعتين من غير شغل.
- وممكن توصل الحكاية شهر
- ونصرف منين واحنا غربه ومالناش حد في البلد دي؟
- تقولي كده لو كان يشغلني واحد آسمه الحاج متولي شعلان صاحب مصنع حدايد وخلافة، او محمد احمد علي العموري مقاول عمارات، دول لما واحد تنكسر رقبته عندهم يبعتوا يجيبوا له الاسعاف وانتهينا، لكن احنا هنا عند الآدميين، حاخد نص اجرتي واقعد مرتاح على ربنا ماياخدْ بيدي. .



يادجلة انا عطشان

وبقدر ماكان عمك محمود فارساً عجيباً في كتابة المسرحيات والقصص والروايات وفوازير رمضان ورسم سير الأبطال من عمالقة تاريخك العربي الزاهر. . .

فقد كان أيضاً فارساً في كتابة الأغنية الوطنية والسياسية والاجتماعية والعاطفية والهزلية . .

وأستطيع أنْ أؤكّد لك ياولدي ، في غير إدعّاء ولا مبالغة أنَّ جُلّ شعراء الأغنية العربية قد تخرجوا من تحت . معطف عمك بيرم . .

لحّن له سيد درويش وزكريا أحمد ومحمد عبد الوهاب وفريد الأطرش .

وغنّت له نور الهدى وأم كلثوم وفريد الأطرش واسمهان وزكريا أحمد .

وفي اعتقادي أنَّ أغنية «بساط الريح» التي كتبها عمك بيرم ولَحّنها وغنّاها فريد الاطرش، هي أوّل أغنية عربية وحدوية، تتغنى بجمال الوطن العربي وجلاله من سوريا الى العراق . . إلى مراكش . . إلى تونس ، ضمّنها عمك محمود كل أشواقه القومية واتواقه الوحدوية تعلقاً بالأمة العربية .

وبهاءها . .

وجلالها . .

وجمالها . .

ففي هذه الأغنية غنى بيرم النيل ودجلة وصدحَ :

يادجلة أنا عطشان ماقدرش ارتوي . . على إيقاع موسيقي لاهب . . .

وبهذه الروح الشعرية الوطنية غنّى عمك محمود بطولات الجنود ، ونخوة الشباب والفداء ، كما في اوبريت . . شهرزاد .

الجنود : اليوم يومك ياجنود — ماتجعليش للروح تمن
يوم المدافع والبارود — ماليكش غيره في الزمن
هيا اظهري عزم الاسود اذا لفه الكفن

البطل :

على السما خلوا الهجوم — لو كانت الأعدا النجوم
وزلزلوا الارض اذا — جاءت على الارض الخصوم

الجنود:

الورى بينده لك	اسمع منه الصوت
بيقول لك فوت اهلك	واستهترت بالموت
احْيينا سُعدا	وأمتنا شهدا

ويلتقي البطل بحبيبته.

البطل: ياحياة الروح هل حالُكِ حالي؟
تذكرين الوصل في تلك الليالي؟
هل يزور الطيف ميدان القتال؟
أمْ يحول العمر من دون الوصال
في رضى الأوطان إنّي لا أبالي
إنما الإقدام من شأن الرجال

الحبيبة:

سر وعد بالنصر	من مولى الموالي
ياحبيباً سار	في نيل المعالي

البطل:

احنا الشباب من طبعنا	نفدي الوطن بروحنا

الجنود:

هيا بنا.. هيّا بنا	نقوم نُودّع بعضنا

البطل:

حمل السلاح في الوقت ده	شرف لشبان عصرنا
نمحي العدا ونروح فدا	في حُبّ مجد بلادنا



شاعر الحسنِ واللطف والأدب

اعلم ياولدي ـ أن لابن خلدون في مقدمة تاريخه جملة مشهورة هذا نصها:
«سمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أنَّ أُصول هذا الفن، أْي الادب، واركانه أربعة دواوين وهي: أدب الكاتب لابن قتيبة، وكتاب الكامل، للمبرد، وكتاب «البيان والتبيين» للجاحظ، وكتاب «النوادر» لابي علي القالي البغدادي، وماسوى هذه الأربعة فتَبَعٌ لها وفروع عنها»

وقد تعمق عمك محمود في هذه العيون فكشف أغوارها، وهتك خمارها، وفحص محارها، وحدَّق في جواهرها واستلهم أسرارها.

أعني بذلك عيون الأدب وأمّات الكتب

أمّا العيون الأخرى.. عيون الهوى والشذى، وعيون الصفاء والنقاء فكذلك تصفحها عمك محمود ويبدو هذا في الكلمات الكثيرة للأغاني التي كتبها هووغنّاها أشهر المطربين.

وقبل أنْ نودّع عمك (محمود) وهويبحر بين العيون ويحدّق على مواصفات المحبوب، رأيت أنْ انقلك الى باريس، فأقدّم لك أثراً شعرياً نفيساً في لغته ورقة كلماته وحُرْقة دمعاته، ودليلاً علىْ مقدرة الشاعر في وصف اللوعة والأسى.. وكل ذلك قد جاء بلغة قلبية عامية لاأتصوّر الفصحى إلاّ قابلة لها مُرحّبة بها...

إنها تحية «شوقي» التي أُلقيت في حفلة تأبين المرحوم أحمد شوقي التي أقامتها الجالية المصرية في باريس.

مكتوب لي في الغيب مصيبة   والغيب عن العلم خافي
تطول حياتي الكئيبه   وأرثي أمير القوافي
ياشوقي ساعة رهيبه   لما المنايا توافي
عزيز على الشرق بات له   الشرق صارخ ولاطم

وقفت ارثيك بصوتي   والصوت على البعد خافت
موتك، وياريته موتي   انطق لسان كل ساكت
ومين مايسمع خفوتي   في ميتمك لما ناحت
النواحين في البوادي   والمنشدين في العواصم

شعوب محمد وعيسى   لهم مذاهب مذاهب
جامع يخالف كنيسه   وشيخ على عكس راهب
قروا صحايف نفيسه   لك فيها وحي المواهب
الكل صلّوا عليها   القبعات والعمايم

تسأل باريس عن غيابك   وإنت عارف جوابها
دى مكتبك في شبابك   وملعبك في شبابها
وصفتها في كتابك   يوم كنت تخشى خرابها
لو كان تقدر جميلك   تنصب عليك المياتم

من جاك وزارك في دارك   وقال يادار آبن هاني
يقول لكبرك مبارك   اقبل ياقبر التهاني
ياقبر طال افتخارك   على القبور والمباني
فيك الأمير اللي ساهر   فيك الأمير اللي نايم



فنّان المقامة

يمكن القول: إنَّ عمك محمود بيرم التونسي قد أضاف للأدب العربي أدباً جديداً هو أدب المقامة الفُكاهية والسخرية السياسية والاجتماعية على خطَى الحريري والهَمَداني والبازجي والشدّياق، ثم لعلّهم، أي كُتّاب المقامة، قد فرّطوا في رَجم بيرم لكنه جاء أكثرهم صفاء شخصية ونقاء وَمَضات اجتماعية وأدبية..

ثم لعلّه قد فاقهم جميعاً بِحكم أنَّ مقاماته النقدية الكاريكاتيرية تتغَلْغَل في صميم مشاغل النّاس الاجتماعية والحياتية والسياسية بأسلوب نقديّ في ظاهره الدُعابة وفي باطنه النّار المُحرقة، والإشارة الدالّة الهامِسَة.

وكما حدّثنا عبد القادر المغربي، فالمقامة في اللغَة معناها المجلس يقوم فيه الناس. ثم أُطلقت مجازاً على الخطبة أو الموعظة التي تُلقىَ في المجلس. وبعد أنْ أَلَّف (البديع) و (الحريري) مقاماتهما أصبح للمقامة معنى خاص مُراعى فيه الوضع والإختراع. فمن ثَمَّ يصحَ أنْ يُقابَل «فن المقامات» في آدابنا العربية ب «فن الروايات» في الآداب الأجنبية: من حيث إنَّ كُلّا منهما يُفرغ في قالب قصة ذات وقائع خيالية. وأشخاص أو أبطال خياليّين، لكنَّ فن المقامات عندنا ذَوىَ وآضمحلّ. أمّا فن الرّوايات عند الافرنج فقد أَخْصَب ونما. وأصبح شجرة باسقة، أصلُها ثابت وفرعها في السماء.

كذلك يُحدّثنا طاهر ابو فاشا أنَّ أثر قراءات بيرم يظهر في أسلوبه، ومنهجه في العرض، وطريقة التعبير.

خُذ مثلاً قصّة الرّشيد والجارية التي أوردها صاحب «إعلام النّاس بما وقع للبرامكة من بني العبّاس» وهو كُتيِّب نادر يمزج القصة بالتاريخ.

فقد مرَّ الرشيد - في بعض الأيام وفي ركابه جعفر البرمكي - بصبايا على ماء. فعَرّج عليهنّ يُريد الشرب. فاذا إحداهن تقول:

قولي لطيفِك ينثني ... عن مضْجَعي وقت المنام
كي استريحَ وتنْطفي ... نارٌ تاجَجُ في العظام

دَنِفٌ تُقَلِّبُه الأكُفُّ		على بِساط من سقام
أمّا أنا. فكما علمت		فهل لو صلك من دوام

فأُعجب الرشيد بملاحتها وفصاحتها، فقال لها:

يابنت الكرام. هذا من قولك أمْ من منقولك؟

قالت: من قولي.

فقال لها: إن كان هذا من كلامك حقّاً فآمسكي المعنى وغيّري القافية.

فأنشدت تقول:

قولي لطيفِك ينثني		عن مضجعي وقت الْوَسَن
كي أستريَح وتَنطفي		نارٌ تأجَّج في البَدَن
دَنِفَ تُقلّبه الاكفّ		على بِساط من شجَن
أما أنا فكماعلمت		فهل لوصلك من ثمن؟

فقال لها الرّشيد: هذا الآخر مسروق.

فقالت: بل هو من كلامي.

فيقول لها: إذا كان هذا من كلامك حقّاً فآمسكي المعنى وغيرّي القافية.

وتُنشد الجارية:

قولي لطيفِك ينثَني		عن مضجعي وقت الهجوع
كي استريح وتنطفي		نار تأجَّجُ في الضلوع
دَنِف تُقلِّبُه الاكفّ		على بساط من دموع
أمّا أنا فكَما علمتَ		فهل لو صلك من رجوع

ويزداد إعجاب الرشيد بها.

وتنتهي القصّة بزواجه منها.



المقامة الشعرية

حدّثنا القاضي الحاذِقُ بن قمذان.

قال:

جلسنا دسْتَةً من المشايخ البهاليل[1]. . في جهة على شاطيء النيل. . وكُلُّنا فصيح شاعر. . وأديب واعْر[2]. . عارف بالإستعارة والتشبيه. . والاطلاق والتّوجيه. . حَفِظَ الصَّرفَ والنّحو. . بلا خطأ أو سهو.

فقال أحدُنا:

إنّ الجلوسَ على شطوط الأنهار. . والاستظلال بغصون الأشجار. . شيء يفتّقُ الأذهانَ والأفكار. . فليقُلْ كلٌّ منّا مايقدر عليه. . وهذا الحاذِقُ بن قمذان نحتكمُ إليه.

وقال آخر. وكان أنشطنا هِمَّه. . وأكبرنا عمَّه:

مابالُنا أيها المشايخُ جامدين. . وبأفكار القدماء متمسكين. . مالنا وللعبسيِّ والجَعْدِيِّ. . والقَيْسِيِّ والسَعْدي[3]. . وأين نحن من ذاك العصر. . وأين الدَّخول وحَوْمَلُ[4] من الاسكندرية ومصر. . وإذا وصفَ العرب الناقةَ والجمل. وأكثروا فيهما الكلام فمالنا لانصفُ الوابورَ والترام. . ولئن وصفوا السماء والأمطار. . لنصِفَنَّ نحن الكهرباء والبُخار. .

وبهذا ترْقَى مدارِكُ الشعب. ويَسهُلُ على الناشئةِ كلُّ صَعْب. فانَّ رُقِيَّ الأمم. . موكول إلى ذوي العِمَم.

فقال الثالث: نعم، وإنَّ ماأصابنا من العذاب الأليم. . والبلاء المقيم. لم يكن إلاّ من اتّباعِنا للقديم.

وقال الرابع كما قالوا. . وكال الخامسُ كما كالوا. . وأخيرا اتَّفقوا بالاجماع. . على أنْ يصِفَ كلٌّ منهم مايُعجُبه من اختراع. . فجلسوا يحكُّونَ الجباه. . ويَعضّونَ الشفاه. . وكان بعضُهم يُتمتمُ ويكتب. . والآخر يلحسُ ويشطب. .

فلمّـا أنهى كلُّ واحـد كتـابتـه . . أعطـاني أحـدُهم ورقتـه . . وكـانَ وجهـه كقعرِ الوابور . . وشَفَتُهُ كحرفِ الماجُورْ . . ولمّا كان يظنُّ نفسَهُ أحد الأعلام . . والشعراء العِظام . . فقد قال يصِف الترام :

إنَّ ارْتكاناً على لَوْح من الخشب
لم يُبقِ شخصاً من الأشخاصِ في تعب
للّه هذا ترامٌ حين تركبُهُ
نستغني حقاً عن الأفراسِ والنُّجُبْ
إن الترام عجيب حين يخرج من
شَبْرا . فكالوتَ ، فالميدانِ فالعتَبِ

قال الحاذق : فلمّا قرأتها . . وَقَّعْتُ تحتها :

من كانَ هِمَّتُهُ تكْبيرَ عمَّتِهِ
فحسبُه صنعةُ الإفتاء لا الأدب
قبَّحَ الله شعرك . . وأُرخص قَدْرَك .

وتقدَّم الثّاني . وهو فَدْمٌ بغيض . . ولكنّه ينتحلُ القريض . . ولمّا كان ذا لحية بهائية . . فقد قال يصفُ الأنوار الكهربائية :

بُشرى فقد وصفَ الأُستاذُ ماقدرا
شمسُ الكواكب في أفق السما طلْعا
تُضِيء في الليل والعدَّادُ يَحْسِبُهَا
الساعتان بمليم فواعجبا
لها كذلك زرٌ شأنُهُ عجبُ
يُضيئُها الزِّرُّ طراً كلما آنفتحا

قال : فلما قرأتُها . . وُقَّعْتُ تحتها :

لو أن ذقنك هكذا نُتِفَتْ
أولو قَذَالُك هكذا صُفِعَا

وإنَّ شيخاً هذه قوافيه . . صُبُّوا الرّصاصَ في فيه .

وتقـدّم الثـالث . وهـو ذو وجه مستدير كالرغيف . . ولحية حمراء كالليف . . يعتلي كلَّ منبر . . ويحمِل معه المنزول والعنبر . . ولما كان مُكثِراً للمشي والطواف . . فقد قال

يصف التلغراف:
على الاسلام والدّنيا السلامُ
إذا بالسلك ينتقِلُ الكلامُ
أرى الافرنج قد قامت ونمنا
وقَبْلاً طالما قُمنا وناموا
ألا ياقوم هُبّوا من رُقادٍ
فمصرُ اليوم يسمعُها الشآمُ
قال: فلما قرأتُها.. وقعتُ تحتها:
ألا قُبِّحْتَ من شيخ خطيب
يضُمُّ مرقَّ معدته الحِزامُ

تعنجهت فلستَ عربيا..

وإن تفلسفتَ فلستَ عصرياً.

ثم تقدَّم الرابع.. وهو شاعر مطبوع بأقبح طابع.. له أسلوب عنتريّ.. وألفاظ أخفُّها كالصخر الفنْتريُّ.. وله شكل كشكل البرابرة.. قال يصف الباخرة:
الفُلْكُ فوقَ فقاقِع البحر
عجباً بلا قلعٍ له يجري
مُتشنْقِعاً في اليمِّ تدفعُهُ
مجدولةُ الأطراف في القَعْر
يتنَفّسُ الصُّعَداء تحسَبُهُ
مُتَقَعْرطاً من شدّة الوَقْر
فلما قرأتها وقّعْتُ تحتها:
فاذا صَعِدْتَ عليه منفرداً
أغْرَقْتَهُ من ذلك الشعْر
أنت ياهذا ناعقٌ أو ناعرٌ.. ولست بشاعر.
ثم تقدم الخامس. وهو شيخ نصفُه قَفا.. ونصفُه اختفى.. ولما كان من سمالوط..

فقد قال يصف التلِفون والخطوط:

يايراعي أسْعِدْ يمينيَ وٱنظُمْ

في التلفون هذه الأشعارا

وتوخَّ السَّهْلَ المنيع وحاذِرْ

أنْ تُرى يايراعَنا مِهذارا .

هذه آلةُ التكلُّم دقَّتْ

بِتغن وحرّكتْ أوتْارا

قال: فلما قرأتُها. . وقَّعْتُ تحتها:

لو نظمتَ الدموعَ من عبرات ال

الشعر دُراً ماكنتَ إلّا حِمارا

الشهرةُ إن كانت قبيحة. . فهي ليست إلّا فضيحه.

قالوا: لقد عِبتنا جميعاً. . وهجوتنا هجواً شنيعاً. . فأسمعنا أشعارك. . وأرِنا ذوقك وآختيارك.

فقلت: ليس عنـدي إلّا ماعَلِمتم. . تسمعـونـه كُلّمـا نظمتم. . فاذا بَعُدتم بَعُدْنا. . وإن عُدْتُم عُدْنا .



على طريق عَمّنا

غداً ستكبر ياولدي . .

وستطـول قامتـك كهذا النخيل الباسق على ضفاف الرافدين وبين جوانِحكَ عزم الشباب وثورته البنّاءة الهازئة بالسحب والأمطار والأنواء .

وستحيا (يارغيد) سعيداً في ظِلّ وطِنك العربي الكبير، كما سيُغَنّي . (هديل) كل الأنهار والأشجار على الأغصان الوارفة وتحت الخمائل الوارقة

والأمـل أنْ تكـون في مسيـرتـك قويم السلوك، معتدلاً تقطع الرحلة في آنسجام كطَلْعٍ نضيد .

واذكروا ياأكبادي - رغيد - و- هديل - ونضيد -

أنَّ عمكم محمـود بيـرم التونسي حمل هواكم في أغانيه ومسرحياته وأزجاله . . وآهاته ومـواويله ثُمَّ في مقـامـاته الهزلية المرحة، باذراً لكم الروح الوطنية الصادقة الصافية، ذلـك بأنّـه يُؤمن بالنابتة العربية في أنْ تكون في طريق الوَحْدة والعمل من أجل رعاية وطنكُم العربي الكبير وحِمايته

فقبـل أنْ يرحـل عمكم محمود، غنّاكم هذا الوطن الام وبشّركم بالمستقبل، وأزال الفـواصـل والحـواجـز بين الأقطـار والأمصـار بفضل أدبه الرقيق، ولغته المُمَيّزة الشفافة، وشعبياته . . وزجلياته . . وفوازيره . . التي وحدها حافظت على كنوز شعبنا وذاكرته التأريخية . والجمالية والروحية . . .

غداً . .

وفي وضح النهار ستنمو أغصانكم الغضّة . . وسيشقّ بعضكم البحر على ظهر الريح ليتعلّم، ويأخذ بأسباب المعرفة الانسانية من أقصاها . . إلى أقصاها . . .

ولكن احذروا . . وانتبهوا

وتأمّلوا جيداً في توصيات عمكم بيرم . .

فقد سبق له أنْ حَذّركم . . وأنبأكم . . وَسَاطَ فئات ضالّة منكم . .

يافندي ياللي أبوك باعتك تتعلم طب

وفايت العلم وداير تعشق وتحب

سبع سنين فاتت ونْتَ تغطس ماتعب

خليت ابوك من مصروفك يكفر ويسب

سيبك بقى من دى الغربه وارجع بيع لب

وان شفت في مصر بطاله اقعد بطال

دى مصر عايزه رجاله مش عايزه عيال

وحضرتك ياللي بتدرس في اوربا حقوق

بتنط من قهوة لقهوة سكران ماتفوق

ان كان قانونك يسكت لك انا اقول محروق

والله اللي جابك من ظهره ماخد الاّ خازوق

رجعت له بفرق وقصّه وشنب محاوق

وتنجعص له من الصاله تقرا الجورنال

دي مصر عايزه رجاله مش عايزه عيال

وحضرتك ياللي بتدرس فن الدوبيا

وتحت باطك لرفاقك		دفتر كوبيا

تاكل فراخ وابوك قاعد		ياكل لوبيا

وتشرب البيره وهوه		يشرب سوبيا

حتى السيجاره ماتشربها		الا زنوبيا

واخرتها تخدم في وكاله		بتمانية ريال

دي مصر عايزه رجاله		مش عايزه عيال

أمّا اسمه إيه اللي فالقنى		وعامل لي عظيم

قال في الزراعه بيتعلم		علم التطعيم

يقول لي طعم التين يشبه		طعم البرسيم

والفلح لما بِتربى		بتربى بهيم

يطلع يبرطع في الغربه		من غير تعليم

والساقيه مادام شُغّاله		الطور شغال

دي مصر عايزه رجاله		مش عايزه عيال

تلك هي صورة دامعة باسمة عن البعثات الطُلّابية المصرية في زمن مضى وعصر آنقضىٰ وأمسٍ أدبرَ وتولَّى.

أمّا اليوم.. فعهدي بكم قد وقفتم على الحقيقة وأصبحتم تُميّزون بين الواجب الوطني والمطلب الذاتي فنداء الوطن يشدّكم الى ترابه وأشجاره وأزهاره

وبما أنَّ الأطفال العرب هم الأطيار الشادية في أرضنا وتحت سمائنا.. أي في أرض العرب

فعمكم بيرم يُجدّد النصيحة والتوجيه..

يدعوكم إلى أن تكونوا طيوره ونسوره وصقوره..

تشربون من مياهه العَذْبة وتُكحّلوا أجفانكم بشمسه الذهبية

ويوم يحيط الخطر ـ لاقَدَّرَ الله ـ بوطنكم فهبّوا لِحمايتهِ ونَجدته.. وكونوا الأطفال الصقور، كأطفال العراق الذين يكتبون صفحة جديدة من تاريخ الطفولة العربية الفدائية الجديدة.

نعم ـ ياأكبادي..

أطفال العراق قد علّموكم أنَّ الطفولة يجب أنْ ترضع حليب الأمّ والأرض معاً. وحليب الرجولة والمجد معاً..

وآعلموا ياأطفال..

أنَّ عمكم بيرم قد مرَّ بديارِكم العربية ذات يوم.. فزار بيوتكم وجلس الى آبائكم.. وقرأ عن أجدادكم وتوقّف على ـ مرويّات ـ شعبياتكم...

ولئن قصفته الحياة في عِزّ العَطاء والهوى..

ولئن لاحقه الاستعمار الانجليزي.. والفرنسي.. وكذلك الحُكم العَفِن، ومَنَعهُ من التنقُّل بحرية في الوطن العربي.

فالعزاء ـ ياأكبادي ـ أنَّ سيرته هذه تأخذ بأيديكم ـ وتَهديكم.. وتُظِلّكم.

والعزاء ـ يااكبادي ـ أنَّ عمكم بيرم قد ترك كنزاً لايفنىٰ من الأدب والشعر والمسرح.. والقصص فآلتفتوا.. واسمعوا.. وَعُوا...

المحتوى

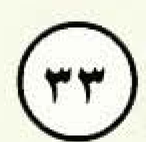


مسح ضوئي واعداد فني
أحمد هاشم الزبيدي

العراق - وزارة الثقافة والأعلام - دار ثقافة الأطفال - قسم النشر - سلسلة المشاهير

رقم الأيداع في المكتبة الوطنية ببغداد ٦١١ لسنة ١٩٨٩

شركة المنصور للطباعة المحدودة - تلفون ٤١٦٣١٥٢





دار ثقافة الاطفال
قسم النشر
سلسلة المشاهير
٦



رقم الأيداع في المكتبة الوطنية ببغداد ٦١١ لسنة ١٩٨٩

شركة المنصور للطباعة المحدودة - تلفون ٤١٦٣١٥٢